

# المكان وتجلياته في الشعر الأندلسي: من تشكيل الدلالة إلى بناء الرؤيا الشعرية

Place and its Manifestations in Andalusian Poetry: From Meaning Construction to Poetic Vision

د. توفيق مساعدي\*

جامعة قسنطينة -1- الاخوة منتوري (الجزائر)، messadia.toufik@umc.edu.dz

تاريخ الاستلام: 2022/11/28 تاريخ القبول: 2026/03/23 تاريخ النشر: 2026/05/11

## ملخص البحث:

### Abstract:

Place is a vital and dynamic element in literary works. It transcends mere description to become a space through which aesthetic and symbolic meanings are shaped and poetic vision is expressed. In Andalusian poetry, place acquires profound emotional and cultural significance, reflecting the poet's sense of belonging as well as feelings of loss and nostalgia. Rather than serving merely as a backdrop for events, place reflects the inner world of the poetic voice and serves as a medium through which human experience is conveyed in its aesthetic and spiritual richness, emphasizing the intimate relationship between human beings and their cultural and natural spaces.

يعد المكان عنصرا أساسيا فاعلا في العمل الأدبي، إذ يتجاوز وظيفته الوصفية ليغدو مكونا جماليا ورمزيا ينهض بدور أساسي في تشكيل الدلالة وبناء الرؤيا الشعرية، وفي الشعر الأندلسي على وجه الخصوص، يكتسب المكان أبعادا حضارية ووجدانية عميقة، تعكس إحساس الشاعر بالانتماء أو الفقد والحنين. فلا يغدو المكان مجرد إطار للأحداث، بل يصبح مرآة للذات الشاعرة، ووسيطا للتعبير عن التجربة الإنسانية في تجلياتها الجمالية والروحية، مجسدا العلاقة الحميمة بين الإنسان وفضائه الحضاري والطبيعي.

## الكلمات المفتاحية:

المكان؛ الدلالة؛ الشعر؛ الأندلسي؛ التجربة؛ الرؤيا

**Keywords:** Place; Meaning; Andalusian Poetry; Experience; Vision.

## مقدمة:

إن المكان في الأدب لا يختزل في كونه حيزاً هندسياً تحدد معالمه بأبعاد وقياسات دقيقة خاضعة للحساب، كما هو الحال في الأمكنة الجغرافية ذات الخصائص الطبوغرافية، بل يتشكل داخل التجربة الإبداعية بوصفه كيانا دلالياً ينبثق استجابة لما عاشه الأديب وعاشه؛ سواء في لحظته الآنية المتجلية بتفاصيلها ومعالمها، أو في أفق التخيل حيث يفد المكان بملامحه وظلاله<sup>1</sup>.

وبهذا، يكون المكان، منذ أقدم العصور إلى اليوم، قد اضطلع بدور محوري في حياة الإنسان، إذ أسهم إسهاماً بالغاً في تشكيل وجدانه وتوجيه رؤيته للعالم، وطبع مسار حياته بسمات خاصة انعكست آثارها في سلوكه وحركته وسكونه. ويبرز هذا التأثير على نحو أوضح في نتاج الأدباء عبر العصور، لما يمتلكونه من قدرة إبداعية على إعادة تمثيل المكان وإنتاجه فنياً، ومنحه قابلية دائمة على التجدد والتواصل<sup>2</sup>.

إن المكان، والحال هذه، يعد عنصراً أساسياً في العمل الأدبي لما يحمله من أبعاد جمالية ودلالية تسهم في بناء الأحداث وتشكيل الشخصيات، إذ لا يقتصر دوره على كونه إطاراً تتحرك فيه الشخصيات، بل يتجاوز ذلك ليصبح حاملاً للرموز والإيحاءات التي تعكس مقاصد النص ومعانيه، وتكشف عن العلاقة العميقة بين الإنسان ومحيطه، وقد تجلّى حضور المكان بوضوح في الشعر، بوصفه وسيلة تعبيرية تعبر عن التجربة الإنسانية والوجدانية للشاعر، "لذلك كان المكان بالنسبة للشاعر أرضاً خصبة للتعبير عن ما يجول في خاطره ومشاعره مما جعله يتحول إلى غرض خاص لتلبية الدواعي والمواقف الكامنة في نفسيته، يرسم فيه أبعاده الاجتماعية والنفسية التي تحمل في طياتها معالم ودلالات مختلفة تتم فيها عملية التذكر والتخيل التي تجعل القارئ يتعرف على العلاقة القائمة بين المكان والشاعر؛ فالشخصية لا يتحقق وجودها الفعلي إلا بحضور ووجود هذا العنصر الذي يبعث فيها الحركة والاستمرارية من جهة ويضفي عليها سمات جمالية من جهة أخرى"<sup>3</sup>.

وإذا نظرنا في الشعر الأندلسي فإننا نجده من أبرز المكونات الدلالية، إذ لم يكن مجرد إطار خارجي للأحداث، بل شكل عنصراً بنيوياً أسهم في تشكيل الرؤية الشعرية وبناء التجربة الوجدانية للشاعر، فقد ارتبط الشاعر الأندلسي بالمكان ارتباطاً وجودياً عميقاً، بوصفه فضاء للذاكرة والحنين، ومجالاً لتجسيد القيم على اختلاف أنواعها الاجتماعية أو الإنسانية، وبهذا، فـ "علاقة الشاعر الأندلسي بالمكان علاقة وطيدة، فهو إما أن يلجأ لتصويره تصويراً خارجياً، يصف ملامحه وأجزائه؛ ليستمتع به جمالياً، وإما أن يعقد بينه وبين المكان علاقة حميمة، فيخلع عليه الصفات الإنسانية؛ لعقد ألفة معه، أو مصادقة رغبة البوح، وإفشاء الأسرار والهموم له، وليشاركه أتراحه وأفراحه، فترى المكان تارة يكلمه وينطق بالحكم والدرر، وتارة يضحك ويضطرب، ومرة يبكي أو يرثي، وقد ينتشي لانتشاء الشاعر، كالروض الذي يبتسم، والأرض التي تصفق، وقد ينذر المكان ويتوعد، وقد يكون ملجأً وملأز الهارب كالجبال، وقد يرحب ويستقبل بالبشر والسرور"<sup>4</sup>.

ولا يقف حضور المكان عند الشاعر الأندلسي في بعده العاطفي فحسب، بل يتجاوز ذلك إلى بعد رمزي يعكس علاقة الإنسان الأندلسي بالطبيعة وبالمحيط الاجتماعي، حيث تتداخل الجغرافيا مع الهوية، ويتحول

المكان إلى مرآة للذات الفردية والجماعية، ومن ثم، فإن دراسة حضور المكان في الشعر الأندلسي تتيح فهما أعمق لبنية القصيدة الأندلسية، ولطبيعة الوعي الشعري الذي تشكل في سياق بيئي وثقافي خاص.

### 1- المكان وفوضى الاصطلاح

لقد أدركت الدراسات النقدية المعاصرة أن تعدد المفاهيم للمصطلح الواحد يؤدي إلى تشظي المصطلح إلى دوائر دلالية دون أن يكون لها واقعا إيجابيا على المفاهيم، وهذا التعدد يجعل المصطلح يسبح في انقسامات غير فاعلة، وعليه فمن الضروري على الباحث أن يضبط المصطلحات حتى تتضح أبعاد المقاربة والتحليل<sup>5</sup>، ويعد مصطلح المكان من المصطلحات التي شهدت تجاذبات اصطلاحية متداخلة "تتخذ أبعادها من مختلف السياقات التي تنتجها المعرفة النصية"<sup>6</sup> ففي لسان العرب لابن منظور نجد جذرين لكلمة مكان، فتحت جذر "كون" نجده بمعنى "الموضع، والجمع أمكنة وأماكن"<sup>7</sup>، أما ما ورد تحت الجذر "مكن" فنجد "المكان: الموضع، والجمع أمكنة كقذال وأقذلة، وأماكن جمع الجمع"<sup>8</sup>.

أما الزبيدي فيعرفه في تاج العروس بقوله: "والمكان هو الموضع الحاوي للشيء، وعند بعض المتكلمين أنه عرض، وهو اجتماع جسمين حاو ومحوي، وذلك ككون الجسم الحاوي محيطا بالمحوي، فالمكان عندهم هو المناسبة بين هذين الجسمين، وليس هذا بالمعروف في اللغة"<sup>9</sup>.

بينما يعرفه أحمد رضا بقوله: "مكن، مكانة: صار له منزلة عند السلطان، فهو مكين مكنا، وجاء فيه مكن كنصر لغة، والاسم مكانة، مكنه من الشيء ... جعل له عليه سلطانا وقدره: جعله يتمكن منه وفيه"<sup>10</sup>.

وأمام هذه الاختلافات بين اللغويين في ترشيح جذر لغوي على حساب آخر يذهب بن بغداد أحمد إلى اعتبار أن المكان مشتق من "كون" لا من "مكن" على اعتبار أن الجذر الحقيقي للمكان هو (كون)، لتضمنه للزمان<sup>11</sup>، وهو ما أشارت إليه حنان موسى حمودة في كتابها الزمكانية وبنية الشعر المعاصر، لما قالت "بأن الجذر الحقيقي للمكان هو (كون)، وهو يتضمن الزمان، فلا حدث يقع إلا في مكان ما وفي زمان محدد"<sup>12</sup>، فالمكان إذاً والحال هذه "إسم مشتق يدل على ذاته، أي ينطوي معناه على إشارة دلالية ممتلئة، تحيل إلى شيء محجم مائل، ومحدد له أبعاد ومواصفات (...) يمكن تحسسه وتلمسه"<sup>13</sup>.

أما في الجانب الاصطلاحي فقد نال مصطلح المكان أهمية بالغة في سياقات معرفية متباينة سواء أكانت ذات منحنى فلسفي أو نقدي أو بلاغي أو لسانی، وقد كان الاختلاف بينا واضحا بين هذه السياقات المعرفية في تحديدها لمفهوم المكان.

ففي المجال الفلسفي اليوناني بقي مفهوم المكان مرتبطا بـ "الموضع والمحل المحدد الذي يشغله الجسم، كقول مكان فسيح ومكان ضيق وهو مرادف للامتداد"<sup>14</sup>، وقد بقي هذا المفهوم للمكان المرتكز على صفة الاحتواء (احتواء الأجسام أو استقرارها عليه وموضع حركتها فيه) من أقدم المفاهيم وأكثرها انتشارا<sup>15</sup>، "ولم تخرج التصورات الإسلامية الفلسفية للمكان على المفاهيم السابقة إلا في حدود الإضافات الجانبية للصفات أو علاقة المكان بما يجاوره من أشياء وأجسام"<sup>16</sup>.

ومثال هذا ما ذكره ابن سينا في قوله "السطح الباطن من الجسم الحاوي الماس للسطح الظاهر من الجسم المحوي، ويقال للسطح الأسفل الذي يستقر عليه جسم ثقيل، ويضيف إلى شرح المكان حد الخلاء"<sup>17</sup>

بقي هذا المفهوم - كما سبق وذكرنا- سائدا لفترة زمنية طويلة باستثناء بعض الإضافات التي زيدت وبخاصة عند علماء الاجتماع الذين زادوا على المفهوم السابق تصورا اجتماعيا للمكان يستمد دلالاته من تجارب وثقافة الإنسان مادام التفكير في المكان من ضمن النشاط الفكري الإنساني<sup>18</sup> "إذ أن الإنسان لا يدرك المكان إدراكا عقليا مباشرا وإنما يدركه بفضل وسائط اجتماعية لا بد من عبورها حتى يستطيع أن يتفهم حقيقة العالم الخارجي"<sup>19</sup>، ولعل التطور الحاصل في العلوم الإنسانية والاجتماعية جعلت مصطلح المكان مرتبطا بالفضاء أحيانا ومنفصلا عنه أحيين آخر، ذلك أن المكان عند بعضهم هو أهم عنصر لإنتاج الفضاءات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وهو ما أكد عليه الفرنسي هنري لوفايير لما أكد على أن الأمكنة المختلفة تمثل مجالات الأنشطة الإنسانية المنتجة للفضاءات الاجتماعية والثقافية<sup>20</sup>.

هذا، ولم يسلم مصطلح المكان في النقد الأدبي من تعدد الآراء وتباينها في محاولة ضبط دلالاته، حيث تصادفنا في النص الروائي العديد من الدراسات التي وظفت مصطلح المكان والفضاء متداخلين أحيانا ومنفصلين أحيين أخرى، فحسين نجعي ورغم إقراره بضرورة الفصل بين الفضاء والمكان إلا أنه يؤكد على صعوبة الفصل بينهما لتداخلهما وهو ما جعله يجيز توظيفهما معا أو توظيف أحدهما وفقا لما يتطلبه السياق<sup>21</sup>، حيث يقول "إذا كان الفصل بين الفضاء والمكان ضروريا ويستلزم كل قراءة نقدية جدية القيام به، فإنه ينبغي بالمثل ألا نلج عليه كثيرا، بل الأفضل أن نكتفي بتشغيل الفضاء على امتداد الدراسة ولا نذكر المكان إلا حيث ينبغي أن يذكر"<sup>22</sup>.

أما حميد الحميداني فيجعل في كتابه بنية النص السردي من الفضاء معادلا للمكان، وعلى وجه التدقيق يجعل من الفضاء أوسع وأشمل من معنى المكان وكأنه يحصر وجه الخلاف بينهما في المسافة التي يغطيها المصطلحان في العمل الروائي<sup>23</sup>.

أما حسن بحراوي في كتابه بنية الشكل الروائي فإنه يجمع بين المكان والفضاء دون تمييز بينهما إلا في حدود الاستشهادات التي أوردها، حيث ارتبط عنده المكان بالفضاء على أساس أن لكل مكان فضاءاته<sup>24</sup>. والأمر نفسه مع سيزا قاسم في كتابها بناء الرواية التي حاولت التمييز بين الفضاء والمكان لكنها حينما تعود لوصف المكان في العمل الروائي فإنها تضيف عليه مفهوم الفضاء<sup>25</sup>.

وإذا كانت علاقة المكان بالفضاء قد نالت اهتماما كبيرا في الدراسات المهمة بالخطاب الروائي، فإنها في الدراسات المهمة بالخطاب الشعري لم تنل الحظ نفسه، ولم تتخط بعض الكتابات القليلة التي حاولت مقارنة العوالم الدلالية للمكان والفضاء وجدليتهما<sup>26</sup>.

ولعل أبرز الدراسات في هذا ما قدمه ياسين النصر في كتابه جماليات المكان في شعر السياب، حيث تناول المكان الشعري مركزا على مصطلح المكان لكن الباحث لم يؤسس لمصطلح المكان بقدر ما يعادل المكان عنده مفهوم الجغرافيا الشعرية أي صورة المكان وتحوله إلى فكرة في النص<sup>27</sup>.

أما يوري لوتمان ففي تناوله للمكان فإنه يضيف إليه كلمة الفني وهو ما يجعله من عناصر البنية الفنية للنص، وبذلك تصبح بنية المكان متطابقة لبنية العالم المتخيل أو المكان الفني كما يصطلح هو عليه.<sup>28</sup>

### 2- المكان وتجلياته في الشعر الأندلسي/ بين التشكيل والرؤيا

يأخذ المكان منزلة مركزية في البنية الجمالية للقصيدة الأندلسية، إذ يتجاوز كونه معطى جغرافيا ذا أبعاد فيزيائية محدودة ليغدو فضاء شعريا مؤوّلاً، تتشابه داخله الأبعاد النفسية والرمزية والوجدانية، فالمكان في التجربة الشعرية الأندلسية لا يستدعى بوصفه إطاراً محايداً، بل باعتباره حاملاً دلالياً يسهم في إنتاج المعنى وتكثيفه، ويشكل منطلقاً لتدفق المخيلة واستدعاء الذاكرة الفردية والجمعية. ومن خلال هذا الفضاء، يعيد الشاعر بناء تجربته الوجدانية، مستحضراً ثنائيات الأمل والألم، والفرح والحزن، والحضور والغياب، ليغدو المكان بذلك وسيطاً تعبيرياً يختزن شحنات انفعالية ورؤى جمالية تتجسد في نسيج لغوي كثيف. وهكذا تتحول القصيدة إلى موطن رمزي بديل، يستعصي على الفناء، ويقوم في الذاكرة بوصفه أثراً شعرياً خالداً، يوثق تحولات الذات وتجليات الحياة في أبعادها المختلفة.<sup>29</sup>

يحتل الحنين للمكان مساحة واسعة في الشعر الأندلسي، إذ لم ينظر الشاعر إلى المكان بوصفه فضاء جغرافياً فحسب، بل عده جزءاً من ذاكرته وكيانه الوجداني، فالأندلس تمثل الوطن والحلم والزمن الجميل، ومع الفقد أو الاغتراب تحول الشعر إلى وسيلة لاستعادتها رمزياً، وبهذا غدا المكان في القصيدة الأندلسية تجسيدا لعلاقة وجدانية عميقة تعبر عن الشوق، ومن النماذج الشعرية التي تقف تدليلاً على حنين الشاعر إلى المكان ما نجده في قول المعتمد بن عباد في منفاه بعد زوال ملكه<sup>30</sup>:

|                               |                             |
|-------------------------------|-----------------------------|
| فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا  | فساءك العيد في أغمات مأسورا |
| تري بناتك في الأطمار جائعة    | يغزلن للناس ما يملكن قطميرا |
| برزن نحوك للتسليم خاشعة       | أبصارهن حسيرات مكاسيرا      |
| يطأن في الطين والأقدام حافية  | كأنها لم تطأ مسكا وكافورا   |
| لا خد إلا ويشكو الجذب ظاهره   | وليس إلا مع الأنفاس ممطورا  |
| أفطرت في العيد لا عادت إساءته | فكان فطرك للأكباد تفتيرا    |
| قد كان دهرك إن تأمره ممتثلا   | فردك الدهر منهيا ومأمورا    |
| من بات بعدك في ملك يُسر به    | فإنما بات بالأحلام مغورا    |

يمثل هذا المقطع الشعري تعبيراً صادقا عن الحنين إلى المكان في تجربة المعتمد بن عباد، حيث يقوم على مقابلة مؤثرة بين مكان الماضي الأندلسي المرتبط بالفرح والملك والكرامة، ومكان الحاضر (أغمات) الذي يرمز إلى الأسر والانكسار والحرمان. فاستحضار الأعياد، وصور القصور، ورنحة المسك يقابله مشهد الطين والجوع والفقر، مما

يكشف كيف تحول المكان من فضاء للنعيم إلى فضاء للإذلال، ويتجاوز الحنين في هذه الأبيات حدود الشوق الفردي ليغدو وعيا بفقدان الهوية وزوال السلطان، حيث يصبح المكان عنصراً فاعلاً في تشكيل الألم النفسي والاجتماعي، وتتحول القصيدة إلى مراثية للوطن المفقود بقدر ما هي رثاء للذات المنفية.

ومن النماذج الشعرية التي تعبر عن الحنين للمكان ما نجده في هذه الأبيات لابن زيدون<sup>31</sup>:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا      وناب عن طيب لقيانا تجافينا  
ألا وقد حان صبح البين صبحنا      حين فقام بنا للحن ناعينا  
من مبلغ الملبسنا بانتراحهم      حزناً مع الدهر لا يبلى ويبلينا  
أن الزمان الذي ما زال يضحكننا      أنساً بقربهم قد عاد يبكينا  
غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا      بأن نغص فقال الدهر آمينا

تعبر هذه الأبيات عن حنين عميق إلى الأندلس، يتجلى من خلال استحضار الشاعر لأيام الوصل والقرب، وما يقابلها من ألم الفراق والإبتعاد. فالشاعر يفتتح أبياته بالإقرار بأن البعد قد حلّ محلّ القرب، وأن الجفاء أصبح بديلاً عن لذة العيش في زمن اللقاء، في إشارة واضحة إلى انقطاع الصلة بالمكان الحميم الذي كان مصدر الأُنس والسكينة. ثم يصور لحظة الفراق بوصفها صباحاً حزيناً جاء كالنذير بالموت، إذ نهضت به نائحة الزمن، فكان الانتقال من الوطن أشبه بحداد على حياة مضت. ويستفهم الشاعر متحسراً عمّن يحمل إلى الأحبة خبر حزنه الدائم الناتج عن الابتعاد عنهم وعن ديارهم، حزناً لا يبليه تعاقب الأيام بل يزيده رسوخاً. ويؤكد بعد ذلك أن الزمن الذي كان يضحكهم فرحاً بقربهم في الأندلس قد انقلب إلى زمن بكاء وحسرة، بعد أن فقد المكان الذي كان يجمعهم. ويختتم الشاعر أبياته بالإشارة إلى شماتة الأعداء الذين سعوا إلى تعكير صفو هذا الوصل، فاستجاب الدهر لدعائهم، ليكتمل بذلك مشهد الفقد والحنين، ويغدو الوطن الأندلسي حاضراً في النص بوصفه موضع الأُنس الضائع، وسبب الألم المستمر في تجربة الشاعر الوجدانية.

ومن النماذج الشعرية التي تصادفنا في التعبير عن الشوق والحنين إلى المكان، ما نجده عند ابن خفاجة الذي يستحضر الوطن/ الأندلس في صورة مثالية تتداخل فيها الطبيعة بالجمال الروحي، فيغدو المكان معادلاً للجنة المفقود، حيث يقول<sup>32</sup>:

إن للجنة بالأندلس      مُجتلى حسن ورياً نَفْسِ  
فسنا صُبَحَتها من شَنبٍ      ودُجى ليـلتها من لَعَسِ  
فإذا ما هبت الريح صَباً      صَحْتُ و شوقي إلى الأندلس

يستهلّ ابن خفاجة قوله في هذه الأبيات بتشبيه الأندلس بالجنة، لما فيها من بهاء أخاذ وراحة للنفس، فهي موضع تتجلى فيه مظاهر الحسن وتأنس به الأرواح، فيدل ذلك على علاقة وجدانية عميقة بين الشاعر والمكان، تتجاوز الإقامة المادية إلى التعلق الروحي. ثم ينتقل إلى تصوير إشراق صباح الأندلس، فيشبهه ببياض الأسنان وصفائها، في دلالة على النقاء والبهجة، ويقابل ذلك بظلمة ليلها التي يشبهها بسواد الشفاه، في صورة تجمع بين التضاد الجمالي وتكامل المشهد المكاني، ثم يبلغ الشوق ذروته في البيت الأخير، إذ يجعل الشاعر هبوب نسيم الصبا باعثا على استيقاظ الذاكرة واستحضار الوطن، فينطلق صوته بالنداء: «وا شوقي إلى الأندلس»، وهو نداء ينضح بلوعة الغربة وحرقة الفقد، فالريح هنا وسيط حسي يربط بين الشاعر ومكانه الغائب، ويحول الأندلس من فضاء جغرافي إلى موطن حميم تسكنه الذاكرة والحنين. وهكذا يتجلى المكان في هذه الأبيات بوصفه صورة مثالية لا تستعاد إلا عبر الشوق، ويغدو الشعر فعل مقاومة للنسيان ومحاولة للإقامة الرمزية في الوطن المفقود.

ومن الأبيات الشعرية أيضا لابن زيدون والتي تعبّر عن شدة الحنين واللوعة والغربة عن الوطن، ما نجده في هذه الأرجوزة<sup>33</sup>:

يا دمع صب ما شئت أن تصوبا  
ويا فؤادي أن أن تذوبا  
إذ الرزايا أصـبحت ضروبا  
لـم أر لي في أهلها ضريبا  
قد ملأ الشوق الحشا ندوبا  
في الغرب إذ رحت به غريبا  
عليـل دهر سامني تعذيبا  
أدنى الضّـمّي إذ أبعد الطيبا  
ليت القبول أحدثت هُـبُوبًا  
ريح يـروح عـهدا قريبا  
بالأفق المـهـدي إلينا طيبا  
تعطّرت منه الصبا جيوبا  
يبرد حر الكـبـد المشبوبا  
يا مُتْبِعًا إسـآذة التـأوِيبا  
مشرقاً قد سـئم التغريبا

تعكس هذه الأبيات لابن زيدون شدة الحنين واللوعة والغربة عن وطنه، الأندلس وخصوصا قرطبة، حيث يتجلى الألم النفسي والجسدي نتيجة البُعد عن المكان الحميم، ويبدأ الشاعر بنداء دموعه وفؤاده، كأداة لتفريغ

شوقه، ويصف الغربة بأنها سلسلة من الرزايا والابتلاءات التي تملأ صدره ندوبا لا يخففها أحد، كما يبرز قسوة الزمن وظلمه الذي يزيد من وطأة الفقد، فيتمنى أن تهب نسيمات تعيد إليه ذكريات الوطن والعهد الجميل، فتخفف حر الغربة وتبرد حرارة الكبد المشبوبة باللوعة. وفي النهاية، يظهر المكان بوصفه ليس مجرد فضاء جغرافي، بل ذاكرة حية ومخزونا وجدانيا، إذ يتحول الحنين والشوق إلى محرك شعوري وفي يعيد الشاعر رمزيا إلى وطنه ويجعل من الشعر وسيلة للاتصال المستمر بالمكان الغائب.

ومن النماذج الشعرية أيضا لابن زيدون والتي تندرج ضمن موضوع الحنين للمكان هذه الأبيات التي قالها في بطليوس بعد فراره من سجنه والتجائه إلى بني عباد في إشبيلية سنة 1049هـ، وهو يتشوق لقرطبة متذكرا أيام لهوه في منازلها، حيث يقول<sup>34</sup>:

خليلي لا فطرَّ يسرّ ولا أضحي      فما حال من أمسى مشوقا كما أضحي  
لئن شاقني شرق العقاب فلم أزل      أخصّ بممحوض الهوى ذلك السفح  
وما انفك جوفي الرصافة مشعري      دواعي ذكرى تعقب الأسف البرحا  
ومـهـتـاج قصر الفارسي صبابه      لقلبي لا تألـو زناد الأسمى قدحا  
وليس ذميما عهد مجلس ناصح      فأقبل في فـرط الولوع به نصحا

تعكس هذه الأبيات شدة الحنين والشوق والغربة النفسية عند ابن زيدون، حيث بدأ باعترافه بأن المناسبات السعيدة مثل عيد الفطر وعيد الأضحى لم تعد تبهجه، لأن قلبه أصبح مشغولا باللوعة والاشتياق بعد البعد عن الوطن والأحبة، ثم يوضح أن الألم يستمر رغم مرور الزمن، فهو يتذكر الأماكن المرتبطة بالحب والهوى، مثل السفح والرصافة والقصر الفارسي، فتتفاعل الذاكرة مع المكان لتزيد من حرارة الشوق والصبابة، ويشير الشاعر إلى أن معاناته ليست إحساسا عابرا، وإنما ثمرة تراكم الذكريات والتجارب التي خلفت أثرا بالغا في النفس، وعلى الرغم من النصائح والمجالس التي تسعى إلى التخفيف من العذاب، يظل قلبه خاضعا للهوى، فيتجلى الترابط الوثيق بين الحنين والذاكرة والمكان، ويغدو المكان الرمزي محورا للغربة والشوق، حيث تصبح كل زاوية في الذاكرة محفزا لإعادة استحضار الوطن وأيامه الماضية.

ومن النماذج أيضا الممثلة للغربة في بعدها الجمعي ما نجده في نونية أبي البقاء الرندي والتي يفتتحها بقوله<sup>35</sup>:

لكل شيء إذا ما تم نقصان      فلا يغربطيب العيش إنسان  
هي الأمور كما شهدتها دول      من سرّة زمن ساءته أزمان  
وهذه الدار لا تبقى إلى أحد      ولا يدوم على حالٍ لها شأن  
يمزق الدهر حتما كل سابعة      إذا نبت مشرفيات وخرصان

والحق، أن نونية الرندي تعد من أبرز النصوص التي جسدت تجربة الغربة والحنين إلى الأندلس بعد السقوط، ففي هذه القصيدة، يصف الشاعر مشاعر الانكسار الناتجة عن فقد الأندلس، فيتحول المكان من فضاء للسلطة والجمال إلى رمز للغياب والفقد، تتجلى الغربة في صورها المختلفة: غربة عن الأرض التي كانت رمزا للسكينة والأمن، وغربة وجدانية عن الماضي الجميل الذي اختلط فيه الحب والجمال والكرامة. كما يعبر الرندي عن الحنين العميق إلى الأطلال والحدائق والقصور، حيث تصبح كل زاوية وكل أثر من آثار الوطن القديم محفزا لاستدعاء الذكريات، فتتزايد اللوعة والشوق، ومن خلال هذا المزج بين الذاكرة والمكان والمشاعر، يظهر الشاعر وكأن المكان نفسه يحيا في وجدانه، مستمرا في حضوره رغم البعد والاعتراب، ويصبح الشعر وسيلة للتخفيف عن الألم النفسي ومحاولة للحفاظ على ذكرى الوطن الأندلسي حية في النفس والخيال.

هذا، ونشير هنا، إلى أن حضور المكان في الشعر الأندلسي لا يقتصر على التعبير عن الحنين والفقد فحسب، بل يتجاوز ذلك ليغدو مجالا لداليا للإشادة بجمال الوطن وبهائه الطبيعي والعمراني، فالمكان لا يستحضر بوصفه أطلالا أو فضاء مفقودا فحسب، وإنما يعاد تمثله بوصفه نصا جماليا ينبض بالحسن والانسجام، حيث يمتزج الوصف الشعري بالخيال والذاكرة ليمنح المكان حضورا حيا ومشرقا في التجربة الشعرية، وبهذا يغدو المكان الأندلسي فضاء شعوريا مركبا، يجمع بين استعادة الماضي والاحتفاء بالجمال، ويؤسس لرؤية شعرية تجعل من المكان عنصرا فاعلا في إنتاج المعنى وإثراء الانفعال الجمالي.

ومن النماذج الشعرية التي نستشهد بها على ذلك، ما نتمثله في شعر ابن زمرك الأندلسي وهو يتحدث عن مدينة غرناطة، حيث يعكس وعيا جماليا عميقا بالمكان الأندلسي، مستثمرا عناصر الطبيعة والمعمار في رسم صورة شعرية زاخرة بالتشخيص والتزيين، حيث يقول<sup>36</sup>:

يا مــــن يحن إلى نجد وناديها      غرناطة قد ثوت نجد بواديها  
قف بالسبيكة وانظر ما بساحتها      عقيلة والكثيب الفرد جالها  
تقلدت بوشاح النهر وابتسمت      أزهارها وهي حلي في تراقها  
وأعين النرجس المطلول يانعة      تفرق الطل دمعا في مآقيها

يتغنى الشاعر في هذه الأبيات بجمال مدينة غرناطة، مقدما صورة مكانية أسرة تمزج بين الطبيعة والزينة والأنوثة الجمالية، فالشاعر يخاطب من يحن إلى نجد وديارها، ليلفت انتباهه إلى أن غرناطة تضاهي تلك الديار جمالا وبهاء، وقد استقرت في واديها استقرار النند للنند، ثم يدعو المتلقي إلى الوقوف عند موضع «السبيكة» والتأمل في ساحتها، حيث تتجلى المدينة في أبهى حللها، كأنها عروس متفردة تتوسطها المعالم الطبيعية في انسجام متناسق، ويشبه الشاعر النهر بوشاح يلتف حول عنق غرناطة، بينما تبدو أزهارها حليا تتلألأ على جيدها، في صورة تبرز

التلاحم بين الماء والنبات والجمال المعماري. ويواصل هذا التشخيص الجمالي حين يصور أزهار النرجس كعيون ناعسة يترقرق عليها الندى كدموع شفافة، فيضفي على المكان حياة وحسا إنسانيا، وهكذا يتجلى المكان في هذه الأبيات لا بوصفه فضاء جغرافيا، بل كيانا جماليا نابضا، يحتفى بحسنه وتفرد، ويغدو موضوعا للتغني والإعجاب في الشعر الأندلسي.

ومن النماذج الشعرية أيضا التي تتغنى بالمكان الأندلسي ما نجده في قول الشاعر<sup>37</sup>:

يا حسن أندلسٍ وما جمعت لنا      فيها من الأوطار والأوطان  
تلك الجزية لست أنسى حسنها      بتعاقب الأحيان والأزمان  
نسج الربيع نباتها من سندسٍ      موشيةً ببدايع الألوان  
وغدا النسيم بها عليلاً هائماً      بربوعها وتلاطم البحران  
يا حسنهما والطلّ ينثر فوقها      درراً خلال الورد والريحان  
وسواعد الأنهار قد مدّت إلى      ندمائها بشقائق النعمان  
وتجاوبت فيها شوادي طيرها      والتقت الأغصان بالأغصان  
ما زرتها إلا وحيّاني بها      حدق البهار وأنمل السّوسان  
من بعدها ما أعجبتني بلدةٌ      مع ما حللت به من البلدان

تقدّم هذه الأبيات صورة شاملة في التغني بجمال الأندلس، حيث يعبر الشاعر عن افتتانه العميق بالمكان وما يختزنه من مظاهر الحسن الطبيعي والتنوع الجمالي، يبدأ الشاعر بتعظيم جمال الأندلس وما جمعته من ألوان المتعة والأنس، حتى غدت في نظره وطنا جامعا للأوطان كلها، لا يضاهيها مكان آخر، ويؤكد هذا التعلق حين يصرح بأنه لا ينسى حسنهما مهما تعاقبت الأزمنة وتبدلت الأحوال، في دلالة على رسوخ صورتها في الذاكرة، ثم ينتقل إلى تصوير طبيعتها الزاهية، فيشبه نباتها بثياب من سندس منسوجة بألوان بديعة، ويجعل نسيمها عليلا هائما يطوف بربوعها، في مشهد يشي بالسكينة والنعيم، ويواصل الشاعر هذا الاحتفاء الجمالي حين يصور الطلّ كأنه درر متناثرة على الورد والريحان، ويمنح الأنهار سواعد تمتد إلى ندمائها من شقائق النعمان، في تشخيص بديع يجعل عناصر الطبيعة كائنات حية متألّفة، وتكتمل الصورة بتجاوب أصوات الطيور والتفاف الأغصان، في انسجام طبيعي يعكس وحدة المكان وجماله، ويختم الشاعر بإقرار صريح بتفرد الأندلس، إذ لم يجد بعد زيارتها بلدا آخر يثير إعجابه، مهما تنقل بين البلدان، مما يرسخ الأندلس بوصفها مكانا مثاليا يتجاوز حدود الجغرافيا ليغدو موطننا للجمال المطلق ومصدرا دائما للفتنة والإعجاب.

ومن النماذج الشعرية، أيضا، التي تدخل ضمن سياق التغني بجمال الأندلس وتمجيد مكانها في الوجدان الشعري، ما ذكره صاحب نفح الطيب، لما قال<sup>38</sup>:

ولله أندلسٌ وما جمعت بها من كل ما ضمت لها الأهواء  
فكأنما تلك الديار كواكبٌ وكأنما تلك البقاع سماء  
وبكل قطر جدولٌ في جنةٍ ولعلت به الأفياء والأنداء

يفتح الشاعر قوله بالقسم والتعجب: «ولله أندلس»، تعبيراً عن الدهشة والإعجاب بما اجتمع فيها من صنوف الجمال التي تهفو إليها الأهواء، حتى كأنها موضع اجتماع رغبات القلوب ومطامح النفوس، ثم يرتقي بالصورة الشعرية حين يشبه ديار الأندلس بالكواكب المتألئة، ويجعل بقاعها سماء فسيحة، ويواصل الشاعر رسم هذا المشهد المثالي بتصوير الطبيعة، فيجعل في كل ناحية جدول ماء يجري كأنه في جنة، تحيط به الظلال وتغشاها الأنداء، في إحياء بالخصب والصفاء والراحة، وهكذا تتكامل الصور لتجعل من الأندلس فضاء تتجلى فيه متعة الحس وسمو الخيال، ويغدو المكان فيه مصدر افتتان دائم ومثالا للجمال المتكامل.

### خاتمة:

وخلاصة القول مما سبق، أن النماذج الشعرية الأندلسية السابقة كشفت عن حضور لافت للمكان بوصفه عنصراً وجدانياً في تشكيل التجربة الشعرية، إذ لم يعد المكان إطاراً جامداً للأحداث، بل تحول إلى كيان حي نابض بالدلالة والانفعال، فقد تماهى الشاعر الأندلسي مع فضائه المكاني، فجعل منه مرآة لذاته، ومخزناً للذاكرة، ومجالاً للتعبير عن الحنين والفقد حيناً، وعن التغني بالجمال والافتتان بالطبيعة أحياناً أخرى، وهكذا أسهم المكان الأندلسي - بما يحمله من ثراء طبيعي وتاريخي - في إثراء الخيال الشعري، ومنح القصيدة طابعاً جمالياً وإنسانياً مميزاً، يرسخ حضور الأندلس في الذاكرة الأدبية بوصفها فضاء شعرياً خالداً، تتداخل فيه الذات بالمكان، ويتحول فيه الوصف إلى تجربة شعورية عميقة تتجاوز حدود الزمان والمكان.

### الهوامش والإحالات:

<sup>1</sup> - باديس فوغالي: الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، (2008)، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، ص 181.

<sup>2</sup> - نفسه، ص 181.

<sup>3</sup> - عمار بن لقريشي، معمر فواز، دلالة المكان في الشعر الجاهلي، حوليات الآداب واللغات، المجلد 04، العدد 02، 2016، ص 87.

<sup>4</sup> - أمل بنت محسن سالم رشيد العميري: المكان في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف، (2006)، أطروحة دكتوراه، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ص 14-15.

<sup>5</sup> - بن بغداد أحمد: شعرية المكان في الشعر الجاهلي، (2015-2016)، أطروحة دكتوراه، جامعة سيدي بلعباس، ص 31.

- <sup>6</sup> - باديس فوغالي: الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، ص 169.
- <sup>7</sup> - ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، ص136.
- <sup>8</sup> - نفسه: ص137.
- <sup>9</sup> - الزبيدي: تاج العروس من جوهر القاموس، وزارة الإرشاد والأنباء، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، الجزء 36، ص189.
- <sup>10</sup> - أحمد رضا: معجم متن اللغة/ موسوعة لغوية حديثة (1960)، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، المجلد 5، ص 333.
- <sup>11</sup> - بن بغداد أحمد: شعرية المكان في الشعر الجاهلي، ص36.
- <sup>12</sup> - حنان موسى حمودة: الزمكانية وبنية الشعر المعاصر، (2006)، عالم الكتب الحديث، الأردن، ص17.
- <sup>13</sup> - باديس فوغالي: الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، ص 169.
- <sup>14</sup> - جميل صليبا: المعجم الفلسفي، (1979)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ص412.
- <sup>15</sup> - جمال مجناح، دلالة المكان في الشعر الفلسطيني المعاصر 1970، (2007-2008)، أطروحة دكتوراه جامعة باتنة، ص12-13.
- <sup>16</sup> - نفسه، ص 13.
- <sup>17</sup> - نفسه، ص 13.
- <sup>18</sup> - نفسه، ص 14.
- <sup>19</sup> - نفسه، ص 14.
- <sup>20</sup> - نفسه، ص 14.
- <sup>21</sup> - نفسه، ص 15.
- <sup>22</sup> - حسين نجعي: شعرية الفضاء، (2000)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، ص42.
- <sup>23</sup> - جمال مجناح: دلالة المكان في الشعر الفلسطيني المعاصر بعد 1970، ص17.
- <sup>24</sup> - نفسه، ص18.
- <sup>25</sup> - سيزا قاسم: بناء الرواية، (2004)، مكتبة الأسرة، ص 103 وما بعدها.
- <sup>26</sup> - بن بغداد أحمد: شعرية المكان في الشعر الجاهلي، ص50.
- <sup>27</sup> - جمال مجناح: دلالة المكان في الشعر الفلسطيني المعاصر بعد 1970، ص21.
- <sup>28</sup> - نفسه، ص22.
- <sup>29</sup> - أمل بنت محسن سالم رشيد العميري: المكان في الشعر الاندلسي عصر ملوك الطوائف، ص 17.
- <sup>30</sup> - المعتمد بن عباد، الديوان، (1951)، تحقيق احمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، الطبعة الأميرية بالقاهرة، ص 100-101.
- <sup>31</sup> - ابن زيدون: الديوان، (1994)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، ص 297.
- <sup>32</sup> - ابن خفاجة: الديوان، (1960)، تحقيق السيد مصطفى غازي، منشأة المعارف، الاسكندرية، ص 136.
- <sup>33</sup> - ابن زيدون: الديوان، ص 25-26.
- <sup>34</sup> - نفسه، ص 55.

- 35- المقرئ التلمساني: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، (1939)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط1، الجزء 01، ص 47.
- 36- ابن زمرك: الديوان، (1997)، تحقيق محمد توفيق النيفر، دار الغرب الاسلامي، ط1، ص 500
- 37- المقرئ التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، (1997)، تحقيق إحسان عباس، دار صادر- بيروت – لبنان، ط1، الجزء 1، ص 228.
- 38- المقرئ التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، الجزء 1، ص 226-227.

### **قائمة المصادر والمراجع**

- أحمد رضا: معجم متن اللغة/ موسوعة لغوية حديثة (1960)، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، المجلد 5.
- أمل بنت محسن سالم رشيد العميري: المكان في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف (2006)، أطروحة دكتوراه، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية.
- باديس فوغالي: الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، (2008) عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1.
- بن بغداد أحمد: شعرية المكان في الشعر الجاهلي، أطروحة دكتوراه، جامعة سيدي بلعباس، 2015-2016.
- جمال مجناح، دلالة المكان في الشعر الفلسطيني المعاصر 1970، أطروحة دكتوراه جامعة باتنة، 2007-2008.
- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، (1979)، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
- حسين نجمي: شعرية الفضاء، (2000)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1.
- حنان موسى حمودة: الزمكانية وبنية الشعر المعاصر، (2006)، عالم الكتب الحديث، الأردن.
- ابن خفاجة: الديوان، (1960)، تحقيق السيد مصطفى غازي، منشأة المعارف، الاسكندرية.
- ابن زمرك: الديوان، (1997)، تحقيق محمد توفيق النيفر، دار الغرب الاسلامي، ط1.
- الزبيدي: تاج العروس من جوهر القاموس، وزارة الإرشاد والأنباء، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، الجزء 36.
- سيزا قاسم: بناء الرواية، (2004)، مكتبة الأسرة، (دط)،
- عمار بن لقريشي، معمرى فواز، دلالة المكان في الشعر الجاهلي، حوليات الآداب واللغات، المجلد 04، العدد 02، 2016.
- المعتمد بن عباد، الديوان، (1951)، تحقيق احمد احمد بدوي وحامد عبد المجيد، الطبعة الأميرية بالقاهرة.
- المقرئ التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، (1997)، تحقيق إحسان عباس، دار صادر- بيروت – لبنان، ط1.
- المقرئ التلمساني: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، (1939)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط1،
- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3.